Economic Life in Al – Sham Lands Through Book Dictionary of Countries for Yaqout Al-Hamawi (Date: 626 AH - 1228 A.D.)

Assist. Prof. Hussein KadhimKhayun Al-Tamimi, PHD
Directorate General of Education of Diyala Governorate
Al - Muqdadiyah Education
Hussaunkkhyoon@gmail.com

DOI: 10.31973/aj.v1i140.1150

ABSTRACT:

The marked topic of the research included (Economic Life in Al – Sham Lands Through Book Lexicon of Countries for Yaqout Al-Hamawi (Date: .626 AH - 1228 A.D.)) for many researches. First topic included brief points about biography of Yaqout Al-Hamawi, his bringing up, periods of his life of he passed them, his professions, his journeys to more of cities, countries, development of his geographical experiences, his initiation of writing his great geographical dictionary, explaining these cities, countries and their news until he settled in the city of Aleppo in which he died after completing his well-known book (Dictionary of Countries).

As for the second topic, which included Al – Sham Lands in terms of its name, location, borders based on what Yaqout Al-Hamawi mentioned, supported by what historians stated about the origin of the name, clarification of the concept of Al – Sham Lands, determining the location from the seven regions which were mentioned, indicating the borders, area of Al – Sham Lands that Yaqout Al-Hamawi referred to them.

While the third topic discussed the basic point of research that deals with the economic life of Al – Sham Lands, including water resources, their sources and their importance for agricultural production. Such as explaining the most important types of crops, at the forefront of which are the cultivation of various grains, fruit trees and orchards are scattered throughout Al – Sham Lands. The topic also dealt with the industrial components , the most significant industries which Yaqout Al-Hamawi referred to , in the context of his speech about the various cities , regions of Al – Sham Lands, as well as the trade that has popular markets inside and outside Al – Sham Lands , such as referring to the transportation route , the entries , their importance in the economic life that Yaqout Al-Hamawi has witnessed them , especially the internal roads that connect Al – Sham Lands cities with each other , external roads which are link between east and west. Which link Al – Sham Lands with other countries which resulted in the prosperity of economic life that reflected positively on the social, financial life of the state and community.

Keywords: economic life, the Levant, the dictionary of countries, Al-Hamwi

الحياة الاقتصادية في بلاد الشام من خلال كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ- ١٢٢٨م)

أ.م.د. حسين كاظم خيون التميمي
المديرية العامة لتربية محافظة ديالى
تربية المقدادية

(مُلَخَّصُ البَحث)

تضمن موضوع البحث الموسوم بـ(الحياة الاقتصادية في بلاد الشام من خلال كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ- ١٢٢٨م) عدة مباحث، تناول المبحث الأوّل فيه نبذة مختصرة عن حياة ياقوت الحموي ونشأته ومراحل حياته التي مرَّ بها والمهن التي عملها ورحلاته إلى الكثير من المدن والبلدان وتطور خبراته الجغرافية وشروعه بكتابة معجمه الجغرافي الكبير، موضّحاً هذه المدن والبلدان وأخبارها إلى أن استقر به الحال في مدينة حلب التي توفي فيها بعد انجاز كتابه المعروف (معجم البلدان).

أمَّا المبحث الثاني الذي تضمن بلاد الشام من حيث التسمية والموقع والحدود استناداً إلى ما ذكره ياقوت الحموي معززاً بما ذكره المؤرخون عن أصل التسمية وتوضيح مفهوم بلاد الشام، وتحديد الموقع من الأقاليم السبعة التي ذكرت وبيان حدود ومساحة بلاد الشام التي أشار إليها ياقوت الحموي.

في حين تطرق المبحث الثالث إلى محور البحث الذي يتناول الحياة الاقتصادية لبلاد الشام، بما فيها الموارد المائية ومصادرها وأهميتها للأنتاج الزراعي، مبيناً أهم أنواع المحاصيل وفي المقدمة منها زراعة الحبوب المختلفة وأشجار الفواكه والبساتين المنتشرة في عموم بلاد الشام، كما تناول المبحث المقومات الصناعية وأهم الصناعات التي أشار إليها ياقوت الحموي في سياق كلامه عن مدن ومناطق بلاد الشام المختلفة، فضلاً عن التجارة التي لها أسواق رائجة في داخل بلاد الشام وخارجها، وكذلك الإشارة إلى طريق المواصلات والخانات وأهميتها في الحياة الاقتصادية التي عاصرها وخصوصاً الطرق الداخلية التي تربط المدن الشامية مع بعضها البعض والطرق الخارجية التي تُعَدُّ حلقة وصل بين الشرق والغرب والتي تربط بلاد الشام مع البلدان الأخرى والتي أدت بالنتيجة إلى ازدهار الحياة الاقتصادية والتي انعكست إيجاباً على الحياة الاجتماعية والمالية للدولة والمجتمع.

الكلمات المفتاحية: الحياة الاقتصادية، بلاد الشام، معجم البلدان، الحموي

المقدمة: Introduction

تُعَدُّ الدراسات التاريخية الاقتصادية في الوقت الحاضر من الدراسات المهمة في توضيح الجوانب الاجتماعية والتقدم الثقافي والسياسي والحضاري في الدول المختلفة، ولم يتطرق إليها إلاَّ القليل من الباحثين.

لذا كان موضوع البحث المذكور، يكمن في أهمية دراسة الحياة الاقتصادية في بلاد الشام باعتبارها من المراكز الاقتصادية المهمة التي اعتمدت عليها الدولة الأيوبية التي عاصرها ياقوت الحموي، واعتمدت الدولة الأيوبية على الجانب الاقتصادي المهم الذي ساهم في تموين الحروب التي خاضها المسلمون ضد الغزو الفرنجي الصليبي من الغرب والغزو المغولي من الشرق، وامتلكت بلاد الشام المقومات الاقتصادية المهمة التي لعبت دورها الفاعل في الحياة العامة للدولة والناس، إذ شهدت الحياة الاقتصادية تطوراً واضحاً في المجالات الزراعية والصناعية والتجارية ونالت اهتمام ياقوت الحموي في سياق حديثه عن مدن ومناطق بلاد الشام المختلفة، ومما يؤكد هذا الاهتمام هو كتابته تفاصيل مهمة عن الموارد المائية كالأنهار والعيون والينابيع والقنوات والسدود والنواعير التي تسقي الأراضي الزراعية، وسعة المساحات الصالحة للزراعة، حتى أصبحت بلاد الشام في عهد ياقوت الحموي مزدهرةً بإنتاج أنواع المحاصيل الزراعية وأصبحت مدن بلاد الشام نقاطا للتبادل التجاري وتداول هذه المنتجات، وانتشرت الأسواق، وأصبحت تمتاز بشهرة تجارية واسعة، وطرقا للقوافل التجارية التي تربط جميع هذه المناطق مع بعضها، ومع البلدان المجاورة، حتى انتشر الرخاء في هذه المدن، وتبرز أهمية البحث في التفاصيل المهمة التي لم تنل الاهتمام من المؤرخين والباحثين في هذا المجال، ولتسليط الضوء على هذه المعلومات واعطاء صورة تأريخية واضحة عن الأهمية الاقتصادية لبلاد الشام وإبراز معالمها في ذلك، تم اختياري لموضوع البحث، ومن الجدير بالذكر أنَّ المعلومات التي ذكرها ياقوت الحموي ما يزال الكثير منها قائما ومستمرا حتى وقتنا الحاضر. ومن اجل معرفة أشمل لتلك المعلومات فتم تقسيم البحث إلى عدة مباحث، وهي كما يأتي:

المبحث الأوّل: نبذة مختصرة عن حياة ياقوت الحموي حتى وفاته.

المبحث الثاني: التطرق إلى بلاد الشام، من حيث التسمية، الموقع، الحدود، معززاً بما أشار إليه المؤرخون.

المبحث الثالث: تناول محور البحث والذي شمل الفقرات:

أ–الموارد المائية. ب– الزراعة. جـ– الصناعة. د. التجارة. هـ. طرق النقل والمواصلات.

المبحث الأوّل: نبذة مختصرة عن ياقوت الحموي.

A brief summary of Yaqout Al-Hamwi.

هو ياقوت بن عبد الله، رومي الأصل، حموي المولد، بغدادي السكن، الملقب شهاب الدين (ابن خلكان، ١٩٤٩: ١٧٨/٥) (Ibn Khallikan, 1949: 5/178)، رحالة جغرافي، أديب، شاعر، لغوي، نحوي، عالم بتقويم البلدان (كحالة، ١٩٦١: ١٧٩/١٣) (Kahala, 1961: 13/179).

ولد في مدينة حماة وقيل ببلاد الروم في العام (٥٧٤هـ- ١١٧٨م)، لقب بالحموي نسبة إلى مدينة حماة التي نشأ فيها، اشتراه ببغداد تاجر اسمه عسكر بن أبي نصر البغدادي، وفيها تربى واليها ينسب بالبغدادي، عامله التاجر معاملة الأبن وتعلم القراءة والكتابة، وأخذ ياقوت يتردد على المكتبات، يقرأ كتبا ،سافر إلى الكثير من الدول لأغراض التجارة لمولاه الذي رباه، وكان أثناء رحلاته يدون ملاحظاته عن الأماكن والبلدان والمساجد والقصور والحكايات والأساطير والغرائب والطرائف فضلاً عن الحياة الاقتصادية التي هي محور بحثنا. وفي العام (٥٩٦هـ- ١١٩٩) اعتقه مولاه عسكر(ابن خلكان، ١٩٤٩: ١٨٩/٥) (Ibn Khallikan, 1949: 5/189) (كحالة، ١٩٦١: ١٧٩/١٣) (Kahala, 1961: 13/179)، وفي العام (٥٩٧هـ- ١٢٠٠م) فتح دكاناً متواضعاً بحي الكرخ ببغداد ينسخ فيه لمن يقصده من طلاب العلم، ويبدو أنَّ هذه المهنة كانت من المهن الرائجة في ذلك الوقت، وساعدته كثيراً على اكتساب الخبرة الواسعة، وعندما بلغ ياقوت خمسة وعشرين عاماً من العمر وتمكن من العلوم المختلفة وشعر أنَّ خبراته الجغرافية قد نضجت، عاود السفر مرة أخرى، وعمل في تجارة الكتب وسافر إلى الشام وخراسان وغيرها من البلدان(ابن خلكان، ١٩٤٩: ١٧٨/٥) (Ibn Khallikan, 1949: 5/178).

بدأ ياقوت إنجاز مشروعه الكبير لتأليف معجم جغرافي كبير وواسع يدون فيه أسماء البلدان ومما سمعه ورآه عنها محققاً أسماءها، ذاكرا لموقعها الدقيق، مراعياً الدقة والتحقيق ذاكراً خطوط الطول ودوائر العرض، موضحاً تأريخها وأخبارها وأحوالها وعاداتها وأخلاق أهلها، ومن خرج منها من المشاهير، وما فيها من كلّ مفيد.

وفي حلب استقر ياقوت وبدأ بتدوين وتجميع معجمه الشهير، ووجد الكثير من الاهتمام والترحيب من واليها جمال الدين القفطي الذي رحب به وجعل له راتباً من بيت المال، وقضى في مدينة حلب خمس سنوات، أنهى فيها الكتابة الأولى لمعجم البلدان، ثم عاود سفره إلى العراق ومدن بلاد الشام وظل يصحح بمعجمه (معجم البلدان) بالإضافة إلى تصانيفه الأخرى مثل كتاب (معجم الشعراء) وكتاب (معجم الأدباء) وكتاب (الدول)، وكانت له أهمية عالية في تحصيل المعارف المختلفة.

وفي يوم الأحد العشرين من شهر رمضان سنة ست وعشرين وستمئة توفي ياقوت في الخان الذي يسكن فيه بظاهر مدينة حلب (ابن تغري بدري، دون تاريخ: ٨/١٧٨) (Ibn Tghri Badri, without history: 8/178)(ابن خلكان، ١٩٤٩: ٥/١٨٩)(Ibn Khallikan, 1949: 5/189).

وكان قد وقف كتبه على مسجد الزيدي الذي بدرب دينار ببغداد، وسلمها إلى الشيخ عز الدين أبي الحسن المؤرخ المعروف علي ابن الأثير صاحب التاريخ الكبير (الكامل في التأريخ) فحملها إلى هناك، وأضاف ابن خلكان قائلاً: ((وقدمت حلب للأشتغال بها في مستهل ذي القعدة سنة وفاته، وذلك عقيب وفاته، والناس يثنون عليه ويذكرون فضله وأدبه، لم يقدر لي الاجتماع به))(ابن خلكان، ١٩٤٩: ٥/١٨٩)(Ibn Khallikan, 1949: 5/189).

المبحث الثاني: بلاد الشام، التسمية، الحدود، الموقع:

Levant, name, borders, location

بلاد الشام: مصطلح يطلق على رقعة جغرافية من الحدود الشمالية الشرقية للعراق حتى شرق البحر المتوسط، وهي مكونة من أربع دول تأريخية هي سوريا ولبنان وفلسطين والأردن. أمَّا ما يتعلق ببلاد الشام فلها عدة تفسيرات وتعريفات ذكرها المؤرخون ، فأوضح ياقوت الحموي في معجمه بخصوص بلاد الشام وأصل التسمية بأن الشام قد تُذكّر وتؤنث وامرأة شاميّة بالتشديد وشامية بتخفيف الياء وأشأَم إذا أتى، وسميت الشام، فيكون جمع شامة لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض فشُبهت بالشامات، وقال أهل الأثر سميت بذلك لأنَّ قوماً من كنعان بن حام خرجوا عند التفريق فتشاءموا إليها أي أخذوا ذات الشمال فسميت بالشام لذلك، وقال آخرون سميت بالشام بـ(سام بن نوح عليه السلام)، وكان أسم الشام الأوّل سُوري، وقيل سميت بذلك لأنها شامة القبلة(الحموي،٢٠٠٨: ٥/١١٦-١١٧)(Al-Hamwi, 2008: 5/116-117).

أمَّا البغدادي (ت ٧٣٩هـ- ١٣٣٨م)، فأشار إلى أنَّ بلاد الشام سميت بذلك لتشؤم بني حام إليها، أو لأنَّ سام بن نوح أول من نزلها فجعلت السين شيناً، وكان اسمها الأوّل سوري(البغدادي، ١٩٩٢: ٢/٧٧٥) (Al-Baghdadi, 1992: 2/775).

ومن ضمن أحد التفسيرات التي توضح لنا سبب تسمية بلاد الشام بهذا الاسم وهو وقوعها في الجهة الشمالية من الكعبة المشرفة، حيث إنَّ مكة المكرمة تقع في منتصف الطريق ما بين الشام واليمن، وكانت القبائل القرشية وغيرها المتواجدة في مكة المكرمة تقوم برحلتين سنوياً فكانت واحدة منها تتم في فصل الشتاء وهي التي تبلغ بلاد اليمن في أقصاها قرباً من البحر والرحلة الثانية تتم في فصل الصيف وتصل الى أقاصي بلاد الشام. وهي

تماماً رحلة الشتاء والصيف المذكورتين في القُرآن الكَرِيم ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**﴾(سورة قريش: الآيات: ١-٤).

في حين ذكر أبو الفدا بأن الشام سميت بذلك لأنَّ قوماً من بني كنعان تشأموا إليها أي تياسروا إليها لأنَّه عن يسار الكعبة وقيل سمي شاماً نسبة إلى سام بن نوح. واسمه بالسريانية شام بشين معجمه وقيل سمي شاماً بشامات له بيض وحمر وسود أي أنَّ به أراضي على هذه الألوان(أبو الفدا، دون تاريخ: ١٨٤٠) (Abu Al-Feda, without date: 1840) .

أمَّا حدود ومساحة بلاد الشام، فأختلف المؤرخون في تحديدها بالضبط فأشار ياقوت الحموي فقال: فحدّها من الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية، وأما عرضها فمن جبلي طيء من نحو القبلة إلى بحر الروم (الحموي،٢٠٠٨: ٥/١١٦-١١٧)(Al-Hamwi, 2008: 5/116-117).

في حين ذكر البغدادي حدود بلاد الشام من الفرات إلى العريش طولاً وعرضاً من جبلي طيء إلى بحر الروم- البحر المتوسط حالياً-(الحموي،٢٠٠٨: ٥/١١٦-١١٧)(Al-Hamwi, 2008: 5/116-117).

وكلامه هذا مطابق لما قاله ياقوت الحموي.

أمَّا ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ- ٩٧٧م) فأشار إلى بلاد الشام قائلاً: فإن غربيها بحر الروم وشرقيها إلى الفرات، ثم من الفرات إلى حد الروم، وجنوبيها مصر وتيه بني إسرائيل، وأخر حدودها مما يلي مصر رفح، ومما يلي الروم الثغور المشروفة(ابن حوقل، ٢٠٠٩) (Ibn Hawqal, 2009) .

بينما كان لأبو الفدا وجهة نظر لا تختلف كثيراً عن بقية المؤرخين حين أشار إلى أنَّ حدود بلاد الشام تبدأ من بلاد الأرمن وهي المعروفة ببلاد سيس والذي يحيط بالشام من جهة الغرب بحر الروم.

ومن طرطوس إلى رفح التي في أول الحدود بين مصر والشام من الجنوب من رفح إلى حدود تيه بني إسرائيل ومن الشمال من بالس مع الفرات إلى البيرة إلى قلعة الروم(أبو الفدا، دون تاريخ: ٢٥٥) (Abu Al-Feda, without date: 255).

أمَّا الموقع الذي حدده ياقوت الحموي فقد جاء في سياق كلامه إلى أنَّ الكرة الأرضية مقسمة إلى سبعة أقاليم، وجعل موقع حمص ودمشق ضمن الأقليم الثالث ومدينة صور الشام وطبرية وبيروت في الحد الأدنى للأقليم الثالث (الحموي،٢٠٠٨: ١/٣٤)(Al-Hamwi, 2008: 1/34).

في حين ذكر ألأبشيهي(ت ٨٥٢هـ- ١٤٤٨م)، إلى أنَّ أقاليم الأرض سبعة منها الأقليم الخامس حيث أقليم الروم والشام (الأبشيهي، ٢٠١١: ٤٣٠)(Al-Abochehi, 2011: 430). ومن خصائص بلاد الشام المتميزة التي ذكرها ياقوت في معجمه : قُسم الخير إلى عشرة أعشار فجعل تسعة أعشار في الشام وعُشراً في سائر الأرض، وقُسّم الشرّ عشرة أعشار فجعل عُشرا بالشام وتسعة أعشار في سائر الأرض، وأضاف ياقوت الحموي: وروي عن النبي (6) أنَّه قال: الشام صفوة الله من بلاده وإليه صفوته من عباده، يا أهل اليمن عليكم بالشام فإن صفوة الله من الأرض الشام إلاَّ من أبى فإن الله تعالى قد تكفل لي بالشام(الحموي،٢٠٠٨: ١١٧/٥)(Al-Hamwi, 2008: 5/117).

أمَّا المدن التي تشتمل عليها بلاد الشام ضمن حدودها التي ذكرها ياقوت الحموي باسم أمهات المدن فهي: منبج وحلب وحماة وحمص ودمشق والبيت المقدس والمزّة وفي الساحل أنطاكيا وطرابلس وعكا وصور وعسقلان وغيرها من المدن، وأضاف أنَّ هناك خمسة أجناد هي جُند فنسرني وجند دمشق وجند الأردن وجند فلسطين وجند حمص (الحموي،٢٠٠٨: ١١٧/٥)(Al-Hamwi, 2008: 5/117).

وذكر اليعقوبي في كتابه البلدان جند حمص وجند دمشق وجند الأردن وجند فلسطين(اليعقوبي، ٢٠٠٢: ١٦٢-١٦٨) (Al-Yaqoubi, 2002: 162-168) ، مشيراً إلى أقاليم كلّ جند والمدن التابعة له والتي سنشير إلى أحوالها الاقتصادية في بحثنا هذا.

وأشار ابن حوقل إلى جند الشام ذاتها مضيفاً اليها قنسرين، وكذلك الثغور التي تعرف بثغور الشام التي كان بها يرابط المسلمون ويغزون (ابن حوقل، ٢٠٠٩: ١٦٣) (Ibn Hawqal, 2009: 163)، والتي ذكرها ياقوت الحموي وتشتمل على الكثير من المدن ومنها: المصيصة وطرطوس وأذنة وأنطاكية وجميع العواصم من مرعش والحدث وبغراس مروراً بالبلقاء وغيرها من المدن الأخرى والتي يبلغ طولها من الفرات إلى العريش نحو شهر وعرضها نحو عشرين يوماً(ابن حوقل، ٢٠٠٩: ١٦٣) (Ibn Hawqal, 2009: 163).

المبحث الثالث: الحياة الاقتصادية.

من خلال كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي الذي عاش معظم حياته في بلاد الشام والعراق وعاصر الدولة العباسية في عهدها المتأخر، وعاصر سلطة الأيوبيين في بلاد الشام، ذكر في سياق كلامه عن اهتمام الأيوبيين على توطيد أركان الدولة الذي انعكس ذلك على الاهتمام بالحياة الاقتصادية من جميع جوانبها الزراعية والصناعية والتجارية فضلاً عن طرق المواصلات والخانات، إذ كانت هذه الجوانب المصدر الرئيس للموارد المالية للدولة، وهذا واضح من خلال ما ذكره عن المدن والمناطق المختلفة في بلاد الشام.

إذ أشار ياقوت الحموي إلى أنواع مختلفة من المحاصيل الزراعية التي تشتهر بها هذه المدن وذلك لتوفر كلّ مقومات الانتاج الزراعي من توفر مصادر المياه المختلفة والتربة الخصبة والظروف المناخية المناسبة، فضلاً عن الاهتمام بالصناعة التي لا تقل أهمية عن الزراعة ومواردها الأولية المتوفرة محلياً التي تعتمد عليها، بالإضافة إلى قيام الأسواق التجارية العامرة المختلفة والمتخصصة بحسب السلع في دورها التجاري الذي نشط فيها تبعاً لذلك مما أدى إلى زيادة التبادل التجاري الداخلي والخارجي، والاهتمام بطرق المواصلات البرية والنهرية والبحرية، إضافة للمحطات التي تسمى الخانات التي تقع على طرق القوافل التجارية. نتيجة لتنشيط الحركة التجارية في بلاد الشام باعتبارها مركزا مهما في الانتاج أصبحت مدن دمشق وحلب وحماة وحمص وغيرها من المدن المهمة، سوقاً تجارياً نشطاً من الطراز الأوّل يقصدها التجار من كلّ حدب وصوب، وأصبح نهر الفرات وموانئ البحر المتوسط الشريان الرئيس في النقل المائي والبحري من وإلى بلاد الشام سواء في التجارة الداخلية أو الخارجية.

كما أوضح ياقوت الحموي الأنظمة الاقتصادية كالخراج والجباية وتوسيع الموارد المالية للدولة لحاجتها الماسة في تمويل الحروب مع الفرنجة الصليبية وكذلك المغول. ولتوضيح تلك المعلومات المهمة للحياة الاقتصادية في بلاد الشام سأتناول الجوانب الاقتصادية الآتية:

أ- الموارد المائية:

توفرت في بلاد الشام الكثير من مصادر الموارد المائية التي ذكرها ياقوت الحموي في سياق كلامه عن مدن بلاد الشام ومناطقها المختلفة فذكر نهر الفرات ومخرجه من أرمينيا وتصب فيه أنهار صغيرة وذكر جميع منابعه وروافده ومنها البليخ وغيره ذاكراً مروره بمدن منبج وبالس والرقة والرحبة، ويروي ياقوت الحموي عن الفرات: إنَّه أحد الأنهار الأربعة من أنهار الجنة، وأشار القُرآن الكَرِيم للفرات بقوله: ﴿**هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ**﴾ (سورة الفرقان، الآية: ١٣). وطابقه في الكلام الأبشيهي عن الفرات بقوله: يوجد بأرض أرمينية، فضائله كثيرة، وفي وسطه مدن وجزائر تُعَدُّ من أعمال الفرات ونهر العاصي، بأرض حماة وقيل بحمص وهو نهر معروف(الأبشيهي، ٢٠١١: ٤٢٨-٤٢٩)(Al-Abochehi, 2011: 428-429). ويتغذى نهر العاصي من روافد عديدة، وكان يسمى قديماً بنهر الأرنط، والمقلوب لأنَّه يجري من الجنوب إلى الشمال، ويسمى أيضاً نهر الميماس(القلقشندي، دون تاريخ: ٢٦٨/١) (Al-Qalqashandi, undated: 1/268)، ولعب هذا النهر دوراً مهماً في ري وسقي الحوض الذي يجري فيه، وكانت مدينة حماة تعاني من انخفاض مجرى نهر العاصي وارتفاع أغلب أراضيها، واستطاع الحمويون التغلب على مشكلة إيصال ماء نهر العاصي إلى البيوت من خلال استخدام النواعير التي تدور بقوة

ضغط الماء ورفعها بواسطة صناديق، فكانت تغطي مساحات واسعة من حماة وتصل إلى أغلب المرافق العامة والمنازل وتسقي البساتين وجميع نواحي حماة (ابن جبير، ١٩٨١: ٢٠٦) (Ibn Jubair, 1981: 206).

وذكر ياقوت الحموي نهر العاصي بانه اسم النهر الذي يجري في حماة وحمص ويعرف الميماس الذي يصب في البحر المتوسط قرب انطاكيا، وقد سُمّي بالعاصي لأنَّ أكثر الأنهر تتجه ذات الجنوب وهو يأخذ ذات الشمال(الحموي،٢٠٠٨: ٦/٢٨٥)(Al-Hamwi, 2008: 6/285).

وفي مدينة حلب نهر قُويق، ماؤه أعذب ماء وأصبه، إلاَّ أنَّه في الصيف ينشف فلا يبقى إلاَّ النزر القليل، وأما في الشتاء، فهو حسن المنظر طيب المخبر، وقد وصفه شعراء حلب بما ألحقوه بنهر الكوثر(ابن جبير، ١٩٨١: ١٠٣/٧-١٠٤) (Ibn Jubair, 1981: 7/103-104).

أمَّا نهر بردى فوصفه ياقوت الحموي بأعظم نهر في دمشق ويظهر الماء من عيون وتنضم إليه عين أخرى، وينحدر نحو مدينة دمشق نهران يأتيانها من جبل الشيخ وهما نهر آبانة الذي هو نهر بردى ونهر فرفر الذي هو نهر الأعوج اللذان ذكرهما ياقوت الحموي(الحموي،٢٠٠٨: ٢/٣٠٠)(Al-Hamwi, 2008: 2/300).

وأضاف ياقوت الحموي في ذكر نهر بردى: قد أكثر الشَّعراء في وصفه في شعرهم وحق لهم ذلك فإنه بلا شك أنزه نهر في الدنيا (الحموي،٢٠٠٨: ٨/٤١٧)(Al-Hamwi, 2008: 8/417). ومن أنهار لبنان التي أشار إليها ياقوت الحموي، نهر الكلب بين بيروت وصيدا من سواحل عواصم الشام (الحموي،٢٠٠٨: ٣/١٦٦-١٦٨)(Al-Hamwi, 2008: 3/166-168). أمَّا مصادر المياه الأخرى كالعيون، والآبار المنتشرة في بلاد الشام فسنشير إليها في سياق الكلام عن الزراعة والمنتجات الزراعية فضلاً عن بقية الأنهار الأخرى الموجودة في المدن والقصبات.

ب-الزراعة:

عرفت بلاد الشام الزراعة منذ أقدم العصور واشتهرت بجودة المنتجات الزراعية من فواكه وحبوب، وتعد سوريا الموطن الأصلي لبعض الأشجار المثمرة مثل الزيتون والفستق الحلبي وغيرها. وكانت الزراعة من أهم الأنشطة الانتاجية خصوصاً حول حوض الفرات ودجلة ومنطقة الجزيرة السورية المحصورة بين دجلة والفرات.

أشار ياقوت الحموي إلى كثرة القرى والمراكز الزراعية المنتشرة في عموم بلاد الشام، وأهم المحاصيل التي اشتهرت بها هذه المناطق وهي مدينة حلب التي يسكن فيها ياقوت الحموي ويحدد خصائصها ويقول عنها: إنَّها كثيرة الخيرات طيبة الهواء وشاهدها مع أعمالها

وقال عنها إنَّ الله خصها بالبركة وفضّلها على جميع البلاد فمن ذلك أنَّه يزرع في أراضيها القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخن والكروم والذرة والمشمش والتين والتفاح عذباً لا يسقى إلاَّ بماء المطر(الحموي،٢٠٠٨: ٣/١٦٦-١٦٨)(Al-Hamwi, 2008: 3/166-168). وأوضح الرحالة بنيامين الذي زار مدينة حلب أنَّه لا يسقي مدينة حلب نهر أو عيون، إذ يضطر الناس إلى شرب مياه المطر وبكل دار في البلد بئر تسمى الجب تجمع فيها مياه المطر (التطيلي، ١٩٤٥: ١٢٢) (Altatayli, 1945: 122)، ومن المحاصيل الأخرى في حلب زراعة الحبوب والفواكه والخضر والسماق، وحبة الخضراء والفستق(الحموي،٢٠٠٨: ٤/٣٠٧)(Al-Hamwi, 2008: 4/307).

أمَّا ما يتعلق بمدينة دمشق وخصائصها التي ذكرها ياقوت الحموي، بأنها جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة ونضارة بقعة، وكثرة فاكهة ونزاهة وكثرة مياه وليس لها نظير في جميع أجناد الشام في كثرة أنهارها وعمارتها ونهرها الأعظم ويقال له (بردى)(اليعقوبي، ٢٠٠٢: ١٦٣) (Al-Yaqoubi, 2002: 163)(الحموي،٢٠٠٨: ٢/٢١٣)(Al-Hamwi, 2008: 2/213)، وتمتد بساتين دمشق إلى ما مسافته خمسة عشر ميلاً من كلّ جانب، ولم أجد مثل فاكهتها وأشجارها في أي مكان آخر في العالم وينحدر نحو المدينة نهر بردى الذي يجري في داخل المدينة ويوزع ماؤه على البيوت الخاصة بقناطر تمر بالأسواق والأزقة(التطيلي، ١٩٤٥: ١١٥) (Altatayli, 1945: 115). وفي مدينة المعرّة (معرّة النعمان) هي مدينة مشهورة وعندهم الزيتون الكثير والتين (الحموي،٢٠٠٨: ٨/٢٧٨)(Al-Hamwi, 2008: 8/278).

وقد زارها ابن جبير وقال عنها: وهي السواد كله بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه، وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقاً(ابن جبير، ١٩٨١: ٢٠٥) (Ibn Jubair, 1981: 205)، ويتصف التفاف بساتينها وأنتظام قراها مسيرة يومين وهي من أخصب بلاد الله. وبهذا يتفق ياقوت الحموي مع ابن جبير الذي سبقه بالوصول إلى بلاد الشام، وازدادت على ما يبدو زراعة الفواكه فيها وانتشرت البساتين فيما بعد بالرغم من اعتمادها على سقي مزارعها وبساتينها على الدواليب لرفع الماء من الأبار فكثر الرمان وأشجار الزيتون والعنب والتين والفستق واللوز والتفاح والخوخ والأجاص والكمثري وغيرها (الجندي، ١٩٦٣: ٨٦) (Al-Jundi, 1963: 86).

أمَّا محاصيل الحبوب مثل القمح والشعير فتتركز زراعتها في بلاد الجزيرة وحصن كيفا وأرزن وتل فافان، وتمتاز مدينة نصيبين بسعة غلاتها من الحبوب وخصوصا القمح (ابن حوقل، ٢٠٠٩: ٢٠٣) (Ibn Hawqal, 2009: 203). وتشتهر جزيرة ابن عمر في انتاج الجوز واللوز والزبيب والتين(ابن حوقل، ٢٠٠٩: ٢٠٣) (Ibn Hawqal, 2009: 203)،

وتكثر أشجار البساتين والبلوط والبندق في مدينة حيزان(الحموي،٢٠٠٨: ٣/٢٠٤)(Al-Hamwi, 2008: 3/204). وتشتهر منطقة حارم وهي من أعمال حلب بالأشجار الكثيرة (ابن حوقل، ٢٠٠٩: ١٧٤) (Ibn Hawqal, 2009: 174)، ومن مدن الجزيرة مدينة رأس العين وهي مدينة كبيرة مشهورة تقع بين نصيبين ودُنيسر، وفيها عيون عجيبة صافية تجتمع في موضع فتصير نهر الخابور، وفيها عين يقال لها خسفة سلامة، فيها سمك كبار وهذه العيون تسقي بساتين المدينة(ابن حوقل، ٢٠٠٩: ٢٠٣) (Ibn Hawqal, 2009: 203)، وفي مدينة سلمية يزرع الزعفران (ابن حوقل، ٢٠٠٩: ١٩١) (Ibn Hawqal, 2009: 191)، وهو من النباتات العطرية التي تدخل في تحضير الطعام لإضفاء نكهة مميزة نظراً لرائحته الزكية النفاثة ومذاقه الخاص، وهو من أغلى أنواع التوابل في العالم.

أمَّا مدينة الرقة الواقعة على نهر الفرات وأسفلها الرقة السوداء ذات بساتين كثيرة وشربها من البليخ، واشتهرت قرية دامان الواقعة بالقرب من الرقة وعلى بعد خمسة فراسخ منها بالتفاح الداماني الذي يضرب بحمرته المثل(ابن حوقل، ٢٠٠٩: ٢٠٣) (Ibn Hawqal, 2009: 203). أمَّا مدينة بالس الواقعة بين حلب والرقة على ضفة نهر الفرات الغربية فتم حفر نهر من الفرات ليسقي أرضهم في عهد الفتوحات الإسلامية، وأكثر غلاتها من القمح والشعير (الحموي،٢٠٠٨: ٣/٢٠٤)(Al-Hamwi, 2008: 3/204). وتكثر الفواكه والرمان والسفرجل والخوخ والكمثري والكروم في منبج(الحموي،٢٠٠٨: ٣/١٠٨)(Al-Hamwi, 2008: 3/108)، وبالرغم من شرب أهالي قنسرين من ماء المطر إلاَّ أنَّها كثيرة الخيرات والسعة في التين والفستق وما شاكله من الكروم وغيرها (الحموي،٢٠٠٨: ٤/٤٨٠)(Al-Hamwi, 2008: 4/480)، وأشار بنيامين التطيلي إلى منطقة الرحبة حيث تكثر حولها الرياض والبساتين(اليعقوبي، ٢٠٠٢: ١٦١) (Al-Yaqoubi, 2002: 161).

أمَّا بخصوص الثروة الحيوانية في بلاد الشام، فتكاد تختفي المعلومات من كتابات ياقوت الحموي ولا يمكن أنَّ تكون مادة لموضوع بحثنا هذا، إلاَّ أنَّها وردت عن الجغرافيين والمؤرخين العرب في إشارات حول الخيول وحيوانات الركوب والماشية، وأسواق البيع والشراء الخاصة بها، وهذا لا يعني عدم وجودها في بلاد الشام، بل على العكس من ذلك فإن اشتهار المنطقة بالوديان والسهول المنبسطة والفسيحة فضلاً عن تساقط الأمطار مما يدل على توفر المراعي الواسعة فيها.

ت-المعادن والصناعة:

توفرت في بلاد الشام الصناعات التي تعتمد على المنتجات الزراعية كمادة أولية ومنها صناعة المنسوجات الحريرية اليدوية التي تمتد جذورها إلى حقب تأريخية قديمة، ويعتقد أنَّ سوريا هي الموطن الأوّل والأقدم لهذه الصناعة في العالم، ومن هذه الصناعات نسج الحرير

والقطن والكتاب والصوف، كما توفرت الصناعات التي تعتمد على المعادن كمادة أولية في الصناعة مثل صناعة الزجاج في دمشق، ولتوفر الرمل الأبيض الذي يدخل في صناعة الزجاج والذي تميزت به مدينة حلب وفيها سوق عرف بسوق الزجاجين(الحموي،٢٠٠٨: ١٨٦/٢)(Al-Hamwi, 2008: 2/186).

كما يتوفر النحاس الذي استخدم في صك النقود (المناوي، ١٩٨١) (Al-Manawi, 1981). وهناك سوق يصك فيه الحديد في الرمل على شكل قوالب(الحموي،٢٠٠٨: ٤٢٦/١) (Al-Hamwi, 2008: 1/426)، ويدخل الحديد في صناعات متعددة من أهمها، صناعة السلاح، وأبواب الأبراج والقلاع، والمسامير، وأنابيب الماء، والقبانات، ويستخدم الحديد مع الرصاص في عمليات البناء على شكل كلاليب لتثبيت الحجارة (ابن شداد، دون تاريخ: ٢٠/١، ٢٤، ٣٤، ٦٩، ١١٤، ١٤٩، ١٥٣) (Ibn Shaddad, without date: 1/20, 24, 34, 69, 114, 149, 153)، ومن الصناعات التي نشطت، صناعة القدور، والشربات المصنعة من الطين الأحمر المتوفر في بلاد الشام بعد فخاره، وصناعة الأرجاء من الحجارة السوداء (الحموي،٢٠٠٨: ١٥٨/١، ٣٢٣/٣) (Al-Hamwi, 2008: 1/158, 3/323).

ومن الصناعات الصوفية التي تنسج لغرض سد الحاجة المحلية وتصدير فائض الانتاج إلى الأسواق الخارجية، وخاصة صناعة الكرباس(الحموي،٢٠٠٨: ٣٠٣/١) (Al-Hamwi, 2008: 1/303)، كما أشتهرت مدن بلاد الشام بصناعة الخمور لكثرة كرومها، وكذلك صناعة زيت الزيتون(ابن شداد، دون تاريخ: ١٥٣/١) (Ibn Shaddad, without date: 1/153)، فضلاً عن صناعات الصابون والخل(ابن حوقل، ٢٠٠٩: ١٦٣)(Ibn Hawqal, 2009: 163)، ومن المهن الشائعة في عصر ياقوت الحموي، دباغة الجلود، إذ ارتبطت سوقها بالأسواق التي تدخل الجلود في صناعتها، مثل الغرائين والأساكفة(ابن شداد، دون تاريخ: ٧٥/١، ١٤٦-١٤٧) (Ibn Shaddad, without date: 1/75, 146-147)، كما نشطت مهنة النجارة وشملت منتجات النجارين، المستلزمات المنزلية من الأثاث الخشبي فضلاً عن النقوش الخشبية التي كانت موضع إعجاب ابن جبير(ابن جبير، ١٩٨١: ٢٠٣-٢٠٤) (Ibn Jubair, 1981: 203-204).

ومن المدن التي اشتهرت بصناعة المنسوجات وجودتها مدينة ديار بكر وكذلك مدينة ماردين (ابن بطوطة، ١٢٨٧هـ: ١٨٢) (Ibn Battuta, 1287 A.H: 182)، كما اشتهرت سرمين في صناعة ثياب القطن وتسمى "قطن حسان وتنسب إليها" وعرفت مدينة بغراس بصنع الثياب الويزية وأختصت مدينة حلب في صناعة ماء الورد النصيبي(ابن بطوطة، ١٢٨٧هـ: ٤٩) (Ibn Battuta, 1287 A.H: 49).

كما توجد دار لصناعة السفن في مدينة صور الساحلية، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم(اليعقوبي، ٢٠٠٢: ١٦٥) (Al-Yaqoubi, 2002: 165). ساهمت تلك الصناعات في نشاط الحركة التجارية بين أقاليم الدولة الإسلامية وساعدت على زيادة التبادل التجاري الخارجي ووفرت تلك الصناعات للدولة أموالا كثيرة.

ث-التجارة وطرق النقل:

بما أنَّ بلاد الشام كانت قاعدة الدولة الأيوبية وتحتفظ بعوامل النشاط التجاري بما فيها موقعها الممتاز وتمتلك كلّ مقومات التجارة بمواردها الزراعية والصناعية الفائضة عن الحاجة، في حين كانت هناك مناطق أخرى تحتاج إلى منتوجات وسلع تنقصها، وقد أدى هذا إلى نشاط التجارة وازدهارها داخلياً وخارجياً، وكانت دمشق المدينة التي ليس لها نظير في العالم، سكنها أصناف الناس وأهل الأمصار، إلى جانب قيام الصلات التجارية بين الشرق والغرب على أثر قيام الحروب الصليبية والغزو المغولي ليلتقي الغرب والشرق على أرض العرب في بلاد الشام، وليس هناك دليل على ذلك النشاط إلاَّ انتشار الأسواق في مدن بلاد الشام ومن هذه المدن دمشق، حلب، حماة، حمص، قنسرين، سرمين، وأنطاكيا، وميافارقين، وحصن كيفا ودُنيسر ومنبج وتل باشر وغيرها واشتهرت دمشق بخصائص يحددها ياقوت الحموي (قصبة الشام) وهي جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة وكثرة فاكهة وكثرة مياهها المتدفقة(الحموي،٢٠٠٨: ٣٠٧/٤)(Al-Hamwi, 2008: 4/307)،في مساكنها وأسواقها وجامعها ومدارسها(البغدادي، ١٩٩٢: ٥٣٤/٢) (Al-Baghdadi, 1992: 2/534). ووصف ابن بطوطة قائلاً لها سوق لا نظير له لحسنه(ابن بطوطة، ١٢٨٧هـ: ١٠١) (Ibn Battuta, 1287 A.H: 101).

واشتهرت مدينة حماة بأسواقها الجميلة فوصفها ياقوت الحموي عند زيارته لها بقوله: "وحماة حافلة بأَسواق كثيرة وبها سوقان أحدهما السوق الأسفل لأنَّه منحط عن المدينة ويسمون السور السوق الأعلى"(الحموي،٢٠٠٨: ٣٠/٢)(Al-Hamwi, 2008: 2/30). وقدم لنا ابن جبير صورة أخرى عن حوانيت تلك الأسواق فذكر: إنَّ ربض حماة كبير، فيه الخانات والديار ، له حوانيت يستعمل فيها المسافر حاجته حتى يدخل المدينة السفلى وهي الحاجة لجميع الصناعات والتجارات (ابن جبير، ١٩٨١: ٢٣٥-٢٣٦) (Ibn Jubair, 1981: 235-236). وامتازت حرّان بحسن أسواقها وعمارتها (ابن جبير، ١٩٨١: ٢٢٣)(Ibn Jubair, 1981: 223).في حين كان لمدينة منبج أسواقها وسككها فسيحة متسعة، ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعاً وكبراً، وأعالي أسواقها مسقفة (ابن جبير، ١٩٨١: ٢٠٠-٢٠١) (Ibn Jubair, 1981: 200-201).أمَّا دُنيسر فلها

الأسواق الحافلة بالأرزاق الواسعة وعرفت بأنها محطة لتجارة أهل الشام وديار بكر وأمد بلاد الروم (ابن جبير، ١٩٨١: ٢٢٠) (Ibn Jubair, 1981: 220).

ويستمر ابن جبير (ت ٥٨٠هـ- ١١٨٣م) في نقل مشاهداته عن أسواقها وحركة التجارة فيها ويقول: يوم الخميس والجمعة والسبت والأحد سوق حفيلة يجتمع بها أهل هذه الجهات المجاورة لها والقرى المتصلة بها لأنَّ الطريق كله يميناً وشمالاً قرى متصلة وخانات مشيدة ويسمون هذا السوق المجتمع إليها من الجهات "بازار" وأيام كلّ سوق معلومة (ابن جبير، ١٩٨١: ٢٢٠-٢٢١) (Ibn Jubair, 1981: 220-221)، ووصفها ياقوت الحموي في سنة (٦٢٣هـ- ١٢٢٦م) بكثرة مساكنها وعظم أسواقها (الحموي، ٢٠٠٨ : ٢/٤٧٨) (Al-Hamwi, 2008: 2/478).

واعتمدت التجارة في بلاد الشام على طرق المواصلات البرية بالدرجة الأولى مستخدمة القوافل التجارية كوسائل نقل لها، وجميع هذه الطرق تمر بالمدن الشامية باعتبارها حلقة وصل بين الشرق والغرب. أمَّا الطرق المائية فشملت النقل النهري باستخدام نهر الفرات وغيره من الأنهار الصغيرة للنقل الداخلي أمَّا مع الخارج فقد ارتبطت بعدد من الطرق الخارجية البرية والبحرية سواء مع مصر أو مع بلاد الروم والعراق وبلاد فارس وأصبحت مدن بلاد الشام المركز التجاري المهم بين الشرق والغرب ومنها تخرج القوافل التجارية إلى العراق المتصل ببلاد فارس ثم الهند وبالصين وكذلك إلى الحجاز واليمن. وأمتلكت مدينة طرابلس ميناءً عجيباً يحتمل ألف مركب بحري(اليعقوبي، ٢٠٠٢: ١٦٤) (Al-Yaqoubi, 2002: 164).

وهناك طرق برية تربط مدن بلاد الشام قادمة من بغداد مروراً بتكريت والموصل ومن هذا الطريق إلى جميع البلدان ومنها إلى نصيبين وسنجار وبقية مدن بلاد الشام (الحموي،٢٠٠٨: ٨/٣٣٩)(Al-Hamwi, 2008: 8/339)، وهذا الطريق نفسه الذي سلكه ابن جبير سنة (٥٧٩هـ- ١١٨٣م) عند عودته من الحج. ويبدو أنَّ هذا الطريق لم يتغير كثيراً عما كان عليه في القرن الرابع الهجري، فقد أشار ناصر خسرو (المتوفي في القرن الخامس الهجري) إلى هذا الطريق الذي يربط شمال الشام مع العراق وبلاد الجزيرة الذي يسير من بغداد العاصمة العباسية محاذياً لنهر دجلة من ضفته اليسرى ويدخل الجزيرة في تكريت ويظل محاذياً لنهر دجلة حتى مدينة الموصل ومنها إلى نصيبين ثم بقية المدن في بلاد الشام والروم(خسرو، ١٩٤٥: ١٠) (Khosrow, 1945: 10) ، ومن أراد أنَّ يسلك الطريق من الشام على فلسطين إلى مكة، سلك جبال خشنة حتى يصير إلى إيلة، ثم إلى مدين، ثم يستمر الطريق مع أهل مصر والمغرب، ومن خرج مغرباً يريد مصر خرج من الرملة إلى عسقلان وهي على ساحل البحر، ثم إلى غزة ثم إلى رفح وهي آخر أعمال الشام

(اليعقوبي، ٢٠٠٢: ١١٦) (Al-Yaqoubi, 2002: 116). وهناك طريق من شمال أفريقيا إلى مصر ثم إلى الرملة ثم إلى دمشق ثم الكوفة فبغداد ثم إلى البصرة ثم إلى الأهواز ثم إلى فارس فكرمان ثم إلى السند ثم إلى الهند ثم إلى الصين(ابن خرداذبة، ١٨٨٩: ١٥٥) (Ibn Khardathbah, 1889: 155) .

ولا بد من الإشارة إلى وجود الخانات التي هي بمثابة الفنادق التي أرتبط وجودها في المدن أو على طريق القوافل التجارية مع تطور الحياة الأقتصادية والتي تُعَدُّ أمراً ضرورياً لوجودها إلى جانب الأسواق والحمامات. وبالرغم من أنَّ ياقوت الحموي لم يذكر معلومات كافية ومفصلة عنها، سوى إشارات عابرة في سياق كلامه عن المدن والمناطق الشامية، فذكر الخانات بأنها المنازل التي كان يسكنها التجار(الحموي،٢٠٠٨: ٣/٢١١)(Al-Hamwi, 2008: 3/211).

الخاتمة: أهم النتائج التي توصل إليها البحث من خلال الجولة التأريخية للموضوع ، يمكن أنَّ نلخصها وكما يأتي:

١- إبراز أهمية الموقع الجغرافي المتميز والرابط بين الشرق والغرب وأثر ذلك في الحياة العامة بأعتبار بلاد الشام من المراكز الاقتصادية المهمة التي لعبت دوراً هاماً في التجارة الخارجية والداخلية.

٢- من خلال التوسع في زراعة الأرض الزراعية وتحقيق إنتاج زراعي وافر، وفرت مدن بلاد الشام لنفسها مصادر غذائية مهمة لتحقيق الأكتفاء الذاتي وتصدير الفائض من الزراعة والصناعة.

٣- كانت الثروات الزراعية والمنتجات الصناعية من المصادر المهمة التي اعتمدت عليها الدولة الأيوبية لتحقيق موارد مالية للدولة التي كانت بحاجة إلى الموارد المالية لتسديد نفقات الحروب مع الفرنج الصليبيين والمغول ورفد ميزانية الدولة.

٤- توفر الظروف المناخية المناسبة من التربة الخصبة الصالحة للزراعة وتوفر مصادر المياه وسقوط الأمطار بكميات كافية للزراعة فضلاً عن وفرة الأيدي العاملة التي ساهمت في إقامة مشاريع الري المقامة على الأنهار وخصوصاً النواعير وقنوات الري وبالتالي حافظت مدن بلاد الشام على هويتها الزراعية وخصوصيتها في الانتاج.

٥- أصبحت مدن بلاد الشام المختلفة نقطة للتبادل التجاري وأتسعت التجارة الداخلية والخارجية مما أدى إلى اشتهار هذه المدن وما تنتجه من المحاصيل الزراعية والصناعات المختلفة على المستوى العالمي.

٦- ارتبط ازدهار المدن الشامية وتطورها بأسواقها وانعكس ذلك على تطور طرق المواصلات البرية والنهرية.

٧- اتسم النشاط الاقتصادي المنتظم الذي اعتمدت عليه الدولة بالحيوية، وزاد من الأواصر الاجتماعية والتآزر بين مختلف مكونات الشرائح الاجتماعية.

٨- ازدهرت الموانئ التجارية بالحركة البحرية الواسعة للتصدير والاستيراد خصوصاً موانئ صور وبيروت واللاذقية وطرطوس.

٩- استمرت المنشآت العامة كالأسواق والخانات في استقطاب التجار من مختلف بقاع العالم وأداء مهماتها لفترة زمنية طويلة.

١٠- اتضح أنَّ الكثير من المدن الشامية المشهورة بالإنتاج الزراعي والصناعي ما زالت تؤدي وظيفتها وتحافظ على خصوصيتها منذ ذلك الوقت وحتى الآن.

المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم**

١- الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت ٨٥٢هـ- ١٤٤٨م)، (٢٠١١)المستطرف في كلّ فن مستظرف، تحقيق وتقديم، محمد ابراهيم سليم، مكتبة ابن سينا، مطابع العبور الحديثة، الطبعة الأولى، القاهرة.

٢- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله الطنجي، (ت ٧٧٩هـ- ١٣٧٧م)، (١٢٨٧هـ): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مطبعة وادي النيل، الطبعة الأولى، القاهرة.

٣- ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف، (ت ٨٧٤هـ- ١٤٩٦م)، (دون تاريخ): النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

٤- ابن جبير، أبي الحسن محمد بن أحمد، (ت ٦١٤هـ- ١٢١٧م)، (١٩٨١): رحلة ابن جبير، منشورات مكتبة الهلال، بيروت- لبنان.

٥- ابن حوقل، أبي القاسم بن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧هـ- ٩٧٧م)، (٢٠٠٩): صورة الأرض، الناشر، شركة نوابع الفكر، الطبعة الأولى، القاهرة.

٦- ابن خرداذبة، أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠هـ- ٩١٢م)، (١٨٨٩): المسالك والممالك، طبع مدينة ليدن، مطبعة بريل، دار صادر، بيروت.

٧- ابن خلكان، شمس الدين احمد بن محمد، (ت ٦٨١هـ- ١٢٨٢م)، (١٩٤٩): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محي الدين، الناشر، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة.

٨- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي (ت ٦٨٤هـ- ١٢٨٥م)، (١٩٥٣): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: دومينك سورديل، دمشق.

٩- أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن محمد (ت ٧٣٢هـ- ١٣٢١م)، (١٨٤٠): تقويم البلدان، طبع باريس، دار الطباعة السلطانية.

١٠- البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ- ١٣٣٨م)، (١٩٩٢): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت- لبنان.

١١- التطيلي، بنيامين، (ت ٥٦٩هـ- ١١٧٣م)، (١٩٤٥): رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، طبع المطبعة الشرقية، الطبعة الأولى، بغداد.

١٢- الجندي، محمد سليم، تأريخ معرّة النعمان، (١٩٦٣): نشره عمر رضا كحالة، مطبعة الترقي، دمشق.

١٣- الحموي شهاب الدين، أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ- ١٢٢٨م)، (٢٠٠٨): معجم البلدان، تقديم محمد عبد الرحمن المرعشي، دار احياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت.

١٤- خسرو، ناصر (المتوفي في القرن الخامس الهجري) الحادي عشر الميلادي، (١٩٤٥): سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب، الطبعة الأولى، القاهرة.

١٥- القلقشندي، أبو العباس، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ- ١٤١٨م)، (دون تاريخ): صبح الأعشى في صناعة الانشا، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر والتوزيع.

١٦- كحالة، عمر رضا، (١٩٦١): معجم المؤلفين، مطبعة البرقي، دمشق.

١٧- المناوي، محمد عبد الرؤوف (ت ١٠٣١هـ- ١٦٢١م)، (١٩٨١): النقود والمكاييل والموازين، تحقيق رجاء محمود السامرائي، دار الحرية للطباعة، بغداد – العراق.

١٨- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢١٤هـ- ٨٢٩م)،(٢٠٠٢): البلدان، منشورات محمد علي بيضون، دارُ الكُتبَ العِلميْة، الطبعة الأولى، بيروت- لبنان.